تحولات في فلسطين

٩٧/٨/١

بقلم غسان سلامه

يذكر انطون شمّاس، الكاتب الفلسطيني المقيم في حيفا، في رائعته الادبية "ارابيسك"، خزانة خشبية كبيرة، اشتراها أبوه من بيروت عشية زواجه، دفعته نكبة ١٩٤٨ لمفارقتها مع اشياء اخرى عجز المهجّرون يومها عن حمله. لم يعد فلسطينيو الجليل يبتاعون حوائجهم من صيدا ولا، ان بعّدوا، من عاصمة لبنان، بل انهم دخلوا تدريجا في اقتصاد اسرائيل وفي مجتمعها، فاشتروا حاجاتهم من تل ابيب، وتعاملوا بالشيقل، وتحدثوا بالعبرية، وتعلموا في التكنيون. وقد عرض التلفزيون الالماني من فترة برنامجا عنهم صورهم يعودون الى اطلال قراهم المهدمة، يبحثون عن القبو وعن شجرة الصبّار مستفيدين من يوم العطلة التقليدي، في قولهم "يوم عيد الاستقلال"، اي في يوم نشوء الكيان الذي ادى الى مأساتهم! وليست هذه أقل مفارقات عيشهم.

ويقول اديب فلسطيني كبير عاد أخيرا الى فلسطين بعد عقود في المنفى انه فوجىء بزوال الحدود تماما بين اسرائيل والضفة الغربية. ففي شمال – غرب الضفة رأى الاستيطان الاسرائيلي على قدم وساق والوجود العربي في انحسار، بينما شعر، بعد عبوره "الخط الاخضر" غربا نحو الجليل، بأن مناطق واسعة من شمال اسرائيل هي اليوم عربية أكثر من اي وقت مضى.

وتتزايد صور التداخل الحميم بين المجموعتين يوما بعد يوم، تنساب من تحت الكلام الرسمي الكبير عن وقف المفاوضات السياسية بينهم او عن عودتها. فعندما دُعي مسؤول من "فتح" لمبارزة مستشار رئيس الحكومة بار ايلان على التلفزيون (الاسرائيلي طبعا، وبالعبرية طبعا)، صفق له الحاضرون فيما يبدو عندما زايد على بار ايلان بقوله: "انت لا تعرف اسرائيل لأنك عشت في اميركا فترة عقدين، بينما كنت انا هنا في المنزل أم في السجن، أتعلم لغتكم، وأتعرف عليكم، وأحاول وقف احتلالكم وانا الفلسطيني المسلم اعرف اسرائيل اكثر منك ولو كنت اسرائيليا يهوديا".

وربما انه على حق، وخصوصا اذا نظرنا الى التداخل الاقتصادي الواسع. فالمناطق الفلسطينية تشتري جل

– التتمة في الصفحة ١٨ –

◄ تحولات في فلسطين

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

حاجاتها من اسرائيل وتعتمد في دخلها على عمل سكانها في مصانع ومتاجر وورش اسرائيل، "بل في بناء مستوطنات جديدة داخل الضفة الغربية نفسها. ولا يدري المرء بما يجيب حين يبادره أجنبي بملاحظة كهذه: "اذا استمر البناء في مستوطنة ابو غنيم، فان سواعد الفلسطينيين ستسهم فيه الكثير". وليست هذه آخر المفارقات.

لذا ينبغي ان نلاحظ ان عقودا ثلاثة من الاحتلال أدت، وقبلها عقود من التجاور والتنافر، الى نوع من الحميمية لا ينفيها الفلسطيني المقيم ولكنه لن يبادر الى البوح بها لغيره من العرب. وتشير دراسات حديثة الى ان اتفاقات اوسلو أدت في الواقع الى مزيد من التداخل بين الشعبين لا الى مزيد من الفصل بينهما. ذلك ان الاسرائيليين باتوا يتحادثون لا مع المقيمين فحسب بل مع الذين عادوا في خطى ياسر عرفات ايضا، وبعضهم "جديد" على أهل الضفة كما على الاسرائيليين. وأدت اتفاقات اوسلو الى أمر آخر، بالغ الاهمية، وهو مزيد من الحرية في تواصل عرب ١٩٤٨ مع أهل الضفة الغربية وغزة. ويبدو ان مئات من حالات المصاهرة تتم الان سنويا بين هاتين الفئتين من الفلسطينيين. كما ان أهل الجليل باتوا يهرعون الى نابلس لتأثيث بيوتهم عشية الزواج، ولو كان ابو انطون حيا اليوم لذهب في الارجح لتلك الحاضرة لشراء تلك الخزانة.

بين اسرائيل بأكثريتها اليهودية واقليتها العربية من جهة، والمناطق الفلسطينية بأهلها الاصائل ومستوطنيها الموتورين، تواصل جغرافي ملتبس، وخبز، وملح. وبينهما، كما ذكرتنا تفجيرات القدس بالامس، دم. ذلك ان العرب، في ما يبدو، ومهما تنوعت آراؤهم السياسية، ما انفكوا يذكّرون انفسهم بأن هذا التواصل مبني اساسا على اغتصاب لم تمح آثاره بعد: فالعلاقة متواصلة ولكنها بعيدة عن ان تكون متساوية. فالاسرائيليون هم في وضع القوي بترسانته العسكرية والنووية، وتفوقه التكنولوجي، وتمكنه من فرض نظرته للتاريخ وللحاضر على دول العالم الكبرى والفلسطيني في وضع المتهم الدائم بمجرد الوجود في المكان الفلط لأن اليهود قرروا انها أرضهم.

لذا تبدو الانباء المتعلقة بزيارة روس وتأجيلها، ولقاءات عرفات مع هذا وذاك من قادة اسرائيل، وعشاءات ابو مازن مع شارون، وكل اللقاءات السياسية والمفاوضات الرسمية والطاولات الممدودة في فنادق طابا وشرم الشيخ ليجلس اليها الديبلوماسيون الوقورون، تبدو كل هذه الامور عارضة، سطحية. فالصحف تتلهى بأخبار ما كان يسمى "الديبلوماسية"، وهي مجال أمسى هامشيا. فكل ما يستطيع المرء تسقطه من الخارج يشير الى ان اللقاءات بين النخبة السياسية والعسكرية والثقافية الاسرائيلية مع من قد يكون اقرب للتشبه بها من الجانب الفلسطيني لقاءات يومية، دائمة، متنوعة، مستمرة مهما تقدمت المفاوضات او تعثرت، ومهما عملت الديبلوماسية ام أخفقت.

إن كان الامر كذلك فهو يدفع لاستنتاجات عدة، اولها وأهمها على الاطلاق ضرورة التفكير في صوابية الدعوة لدولة فلسطينية. أيد العرب عن حق "حق تقرير المصير" وتحولت الدعوة لاحقاق هذا الحق الى تمسك بمبدأ الدولة. وقد يكون هذا المشروع مفيدا فعلا لأنه يعزز بين الفلسطينيين شعورا مريحا بالمساواة مع غيرهم من الشعوب العربية، كما مع اسرائيل، ويسهم في ازالة مركّب نقص يبدو احيانا وكانه يتحكم فيهم، لكونهم شعبا بلا دولة. وقيام الكيان الفلسطيني المستقل سيكون، في حال تحققه، خطوة متقدمة على طريق طويل أرغم اليهود أولا على ان يأخذوا اهل فلسطين بالاعتبار (والمستوطنون الاوائل كانوا عاجزين عن ذلك) الى الاعتراف بوجود شعب فلسطيني متميز (كانت غولدا مئير تنفيه بغضب) الى القبول بقاعدة "ضرورة ان نعرف كيف نعيش معا لأن واحدنا لا يستطيع الفاء الاخر" (وهو ما توصل اليه اسحق رابين بعد طول مخاض) الى قيام دولتين على ارض واحدة، مما يعني لا مجرد التجاور فحسب، بل ايضا المساواة في الحقوق السياسية، وبالذات في حق انشاء كيان مستقل.

تبدو القضية الفلسطينية من هذا المنظار وكأنها تسير، رغم المآسي والعثرات، في اتجاه ليس بالضرورة سلبيا. غير ان التحولات السكانية والسياسية والاجتماعية المتراكمة تؤدي ايضا الى مزيد من الترابط والتضامن بين عرب "اسرائيل" وعرب "المناطق"، مما نرى صورا عنه في تجرؤ حاملي الجنسية الاسرائيلية على اعتبار انفسهم فلسطينيين، بل "مستشارين" عند رئيس السلطة الفلسطينية بينما هم مرشحون لعضوية الكنيست الاسرائيلي! وتؤدي التحولات عينها الى تواصل متزايد من على جانبي "الخط الاخضر" الفاصل بين الكيانين المحتملين، بين عرب فلسطين ويهودها لدرجة تصبح الجغرافيا معها في تناقض مباشر مع الديموغرافيا: فالاولى تدفع للبحث الدؤوب عن الحدود والمعابر والثانية ما تنفك تنساب وتتداخل وتلغي الحدود وتوسع المعابر.